تعقيبات

الأستاذ أنور المعداوي

« تحت المبضع » للأديب السوري محمد روحي فيصل :

كتاب في بضع وثمانين صفحة ، ولكنه يقدم صاحبه خير تقديم . يقدمه في معرض النقد الأدبي حين يكون للذوق المرهف أثره الملحوظ في اللمحة الفنية التي تفضي عن لمحات ، وفي اللمحة الفكرية التي تهدي إلى لمحات ... أما الكتاب ، فهو « تحت المبضع » ، وأما الكاتب فهو الأستاذ محمد روحي فيصل رئيس تحرير الرابطة الأدبية في « حمص » .

وبعد كلمات يجب أن أقولها قبل أن أقدم للأستاذ روحي فيصل [illegible] عليه ، وقبل أن أضع مبضعه تحت المبضع ، فأقف معه هنا ، وأختلف معه حيناً آخر ... ولا بأس أبداً من أن نلتقي هنا لنفترق هناك ، ما دامت السطور الأولى من هذه الكلمة النقدية تحمل إلى القراء حكماً صادقاً وأخيراً على شخصية الكاتب وما كتب !

في هذا الكتاب فصول أفردت لنقد الشعر والنثر ممثلين في شهريارين : الملاء ... وزهرة أخرى تعود إلى فيلسوف المرة لننظر فيما قاله الأستاذ روحي فيصل عن هؤلاء الذين اشتركوا في إحياء ذكراه ، وبخاصة تلك النخبة من الشعراء أمثال الأساتذة : عمر أبي ريشة ، وبدوي الجبل ، وشفيق جبري ، ومحمد البزم ، ومهدي الجواهري ... شعراء خمسة تقدم كل منهم إلى المهرجان بأبيات من الشعر تفاوتت في سبحات الخيال ورفرفات الجناح ، وكاتب يقف منهم جميعاً موقف العارض في أناة ، المحلل في أناة ، الناقد في ثقة واحتشاد .

أول شيء أود أن أشير إليه هو تلك الكوى الفكرية التي أطلت منها رءوس الشعراء والناثرين لتنفذ إلى أغوار الشخصية الملائية ... بما فا خرجت تلك الرءوس من ذلك الفكر المسجى على فراش الآجال والصور ؟ أكاد أقول لا شيء ! ... لا شيء غير تلك القصة المكررة التي ترويها كتب القصاص والمحدثين ، ولا شيء غير ذلك « الفلم » الذي تعرض مناظره على « شاشة » الشعر والنثر دون أن تتجدد الزوايا العديدة في الصور النفسية ، وكأن أبا الملاء على كثرة « المخرجين » و « المصورين » نسخة واحدة أبرز فصولها مخرج واحد ، والتقط مشاهدها مصور واحد ، وكأني كنت أمد عيني إلى مهرجان أبي الملاء ، وأرهف سمعي إلى ما يقال عنه يوم أن قلت في عدد مضى من « الرسالة » : « لو قال الباحثون عن أبي الملاء إنه إنسان قلق لعبروا عن الواقع أدق التعبير ، ولأحاطوا بكل جانب من جوانب شخصيته بهذه الكلمة الواحدة ، ولكنهم ركزوا كل عنايتهم في جانب واحد انتهوا منه إلى حكم عام ما لبث أن استقر في الأذهان ، واطمأنت إليه النفوس ؛ هذا الحكم العام محوره « التشاؤم » في شخصية الرجل وفي فلسفته على حد سواء ! ... من الخطأ في رأيي أن ينسب الباحثون أبا الملاء إلى نزعة نفسية بعينها ليتفرد بها وليقف عندها لا يكاد يتعداها إلى غيرها من النزعات ؛ ذلك لأن أبا الملاء قد مال إلى التفاؤل كما مال إلى التشاؤم ، ونصح بالإقبال على الحياة — كما نصح بالإعراض عن الحياة ، وآمن بالبعث كما أنكر إمكانه بهذا البعث ، وأوصى بالزهد في نعيم الدنيا كما أوصى بالإغراق في هذا النعيم ، ونادى بفكرة الزواج والنسل ، كما نادى بنبذ هذه الفكرة مقدماً من نفسه مثالاً لهذا الحرمان ! ... أبو الملاء إذن لم تكن له « لاخة » واحدة « يلتن » فيها عن رأي واحد تتميز به شخصيته الفلسفية والإنسانية ، ولكنه كان أشبه بالتاجر الذي يلتن كل يوم عن « صنف » جديد من أصناف « بضاعته » عقب وروده بلحظات ؛ وكل تلك السطور المتناقضة يمكنك أن تضمها تحت عنوان كبير مكون من كلمة واحدة واحدة هي : القلق » !

ولقد فسرت هذا القلق على ضوء علم النفس الأدبي تفسيراً جديداً ، حيث قلت بعد كلام طويل في هذا المجال : « الفراغ في حياة أبي الملاء ، ولا شيء غير الفراغ ، وعلى هديه نلتمس العلة الأصيلة لتلك الذبذبة النفسية ممثلة في هذه الذبذبة الفكرية ... ولنا بعد ذلك أن نسأل : أي لون من ألوان الفراغ كان يشكو أبو الملاء ؟ إنها ثلاثة ألوان : فراغ النفس ، وفراغ القلب ، وفراغ الجسد ... وذلك أن زودها جميعاً إلى الحرمان ، فنفس

أبي العلاء كانت تشكو الحرمان من العطف ، وقلب أبي العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة ، وجسد أبي العلاء كان يشكو الحرمان من المرأة ... وقفٌ طويلا عند هذا الحرمان الأخير ، فهو مصدر الحرمان كله ، ومركز الفراغ كله ، وعلة هذا القلق الذي وجه أبا العلاء ألف وجهة ، وحيره بين ألف رأي وعقيدة ، وقذف بعقله إلى ألف درب من دروب الفكر ، حيث يتجلى التناقض والتضارب والاختلاف ! هذا الجدب العاطفي في القلب الإنساني ، وهذا الكبت الطويل العنيف للغريزة الجنسية ، هما في رأيي — ولا شيء غيرهما — مركبا النقص الخطيران في شخصية أبي العلاء ، ولا حاجة بنا إلى الحديث عن مركب النقص وأثره في توجيه العقول والأفكار » ! !

قلت هذا بعد أن عرضت لآراء الباحثين ممن وقفوا عند الآفة الجسمية في حياة أبي العلاء مفسرين على ضوئها معالم الاضطراب في نظراته وآرائه ... فليرجع القراء إلى ما قلت ، لأن تلك السطور التي نقلتها هنا لا تتنبهم عن البحث كاملا مرتبط الفصول متماسك الأجزاء ، مسلسل الحلقات ، بين النتائج والمقدمات ... تلته بالأمس ، وأعود اليوم فأذكّر به ، لأن الأستاذ روحي فيصل يتفق معي في أن خطباء المهرجان لم يأتوا بجديد حين يقول في مقدمة كتابه : « فأما إن أبا العلاء المعري نفسه قد استبان لنا على غير ما كنا نعرف من صورته ، فذلك لا يقوله أديب له شيء من مشاركة في فهم الأدب على العموم ، وفي فهم الأدب العربي على الخصوص . فما شع من هذا المهرجان الذي اقتضى ضوء نظرية جديدة من شأنها أن تنير ناحية من أبي العلاء كانت مجهولة أو مظلمة ، ولا انبثق عرض شامل ينظم هذا الرجل الكبير في شتى مجاليه » !

وأقف هنا وقفة قصيرة لأهمس في أذن الأستاذ فيصل قائلا له : لقد كنت أرجو ألا يكون ناقداً فحسب ، وإنما كنت أرجو أن يكون ناقداً وباحثاً في وقت معاً ... أعني أنني كنت أود ، وقد أشار إلى هذا الاجترار الممل فيما قيل عن أبي العلاء ، أن يحاول هو من جانبه أن يضع شخصية الرجل تحت المجهر عسى أن يخرج من دراسته بنظرات جديدة . ولكن الأستاذ فيصل قد ترك أبا العلاء إلى هؤلاء الذين تحدثوا عنه من الكتاب والشعراء ، مقتصراً على الإشارة العابرة إلى كلمات الفريق الأول ، والنقد المفصل لقصائد الفريق الأخير !

وأنتقل بعد هذه اللفتة إلى الفصول النقدية الخمسة التي أفردها الأستاذ فيصل لشعر أبي ريشه والجبل وجبري والبزم والجواهري .

في تلك الفصول لمسات تنبئ في الكثير الغالب عن سلامة التقويم ، ونزاهة التقدير ، وعرض موفق للشخصية الأدبية على مدار الحقل الشعري واتساع مداه ... هناك حيث تبحث من معدن الملكة الناقدة فيشع في اللحة الفنية التي تنبئ عنها كما قلت لك — من لمحات ، وفي اللمسة الفكرية التي تهدي إلى بلمات .. انظر مثلا إلى هذين البيتين من قصيدة بدوي الجبل حول مشكلة الآفة الجسمية في حياة أبي العلاء ، واحكم — بعد ذلك — على الذوق الأدبي عند روحي فيصل :

من راح يحمل في جوانحه الضحى ... هانت عليه أشعة المصباح
وجلا للعين من الظلام فانتحى ... عن النفوس لعجة وصياح

« فاقرأ هذين البيتين كما قرأتهما أنا ، وأعد تلاوتهما على نفسك ، وانفذ إلى مطاويهما ، وتذوق حلاوتهما ، فستجد أنك حيال لون من الشعر المشع الجميل طالما رغبنا في مثله ، وظللنا حرصنا على أن يسحب الشعراء على ذيله . وسترى عمل البيان في الخروج بخوالج النفس إلى دنيا النور أو دنيا الضجة والصياح كما يقول البدوي ؛ وإنما يعجبني البيت الأول لأن صورة « الضحى بين الجوانح » من أرق الصور وأدناها إلى الخيال وأعلقها بالبال ... ويعجبني البيت الثاني لأن كناية « الضجة والصياح » من أبرع الكنايات في الدلالة على الكشف والإعراب » .

هنا ذوق رائع في فهم الشعر ورفع الغطاء عن أسرار مراميه ، ولكني أختلف مع صاحبه حين يزن هذا البيت بميزان الأداء اللفظي في الوقت الذي أنادي فيه بإقامة الميزان للأداء النفسي في الشعر العربي الحديث ... يقول بدوي الجبل في مجال الحديث عن موقع المرأة من شعور أبي العلاء :

يا ظالم التفاح في وجناتها ... لو ذقت بعض شمائل التفاح !

ويقول روحي فيصل في مجال التحليل والنقد : « فهذا عتاب ناعم يوجهه الشاعر لأبي العلاء فيما تجنى على المرأة من نقد ، وهذا إغراء جميل على محاسن الأنوثة ، وهذا فوق ذلك ، ألفاظ خفاف

ومسرى حلو ، ونغم لطيف ، وشعور — على أنه سطحي وابتدائي وجماهيري — لا يخلو من شيء من الإحساس بفتنة المرأة وسحر الجمال » .

معذرة إذا قلت للأستاذ فيصل : إن هذا الشعور الذي يصفه بأنه سطحي وابتدائي وجماهيري ، هو وحده الذي أكسب بيت بدوي الجبيل ذلك الأداء النفسي الذي أدعو الشعراء إلى أن يطرقوا أبوابه ... إن كلمة « لو ذقت » هي التي أوحت إلى الأستاذ فيصل بهذا الوصف ، ولكنه لو نظر إلى الظلال الفنية التي أسكنها الشاعر بناء التعبير ممثلة في تلك الكلمة ، لتكشف له عمق الحركة النفسية في ذلك الصدق الشعوري النبعث من بساطة الأداء.

ولقد كنت أود أن أطيل القول في مشكلة الأداء النفسي في الشعر ، لولا أن هناك بحثاً يدور حول هذا الموضوع في انتظار العرض على صفحات « الرسالة » في الأيام المقبلة .

ويبدو لك من كتاب الأستاذ روحي فيصل أنه يفضل قصيدة عمر أبي ريشه على غيرها من الشعر الذي ألقي في المهرجان ... وهنا أختلف معه مرة أخرى ما دام هو يضع الشعر أحياناً تحت مجهر الحركة اللفظية ، ومادمت أنا أضعه أبداً تحت مجهر الحركة النفسية. يقول أبو ريشه مثلاً :

أتريد الوجود منتهك الستر ... ريثما أسراره عريانا
وينمض القدام عن قلبه السمح ... ويجريه للعطاش دنانا
لو بلغنا ما نشتهي لرأينا الله ... في نشوة الشعور عيانا

هنا معرض ألفاظ يموج بصور فكرية مادية التلوين مألوفة الأشواء ، كل ما يهزك منها هو هذا الإطار التعبيري الذي يحيط بالصورة ، ويضفي عليها شيئاً من الجمال ، الجمال الذي يطالع الأنظار والأسماع ولا يطالع المشاعر والنفوس ! ولكن الذوق المرهف يعود إلى محراب الأصيل عند روحي فيصل عند ما يهتز طرباً ، وأهتز معه لهذا التصوير النفسي الموفق في هذين البيتين لهدى الجواهري حول قسوة القدر على حياة أبي العلاء :

على الحصير وكوز الماء يرفده ... وذهنه ورفوف تحمل الكتبا
أهوى على كوة في وجهه قمر ... فسد بالظلمة النيرين فاحتجبا

ولمحة أخرى للأستاذ فيصل تبلغ الغاية في الإشراق ، لمحة أضافح عليها بقطة النقد عند هذا الناقد الذواق ... بيت من الشعر في قصيدة عمر أبي ريشه مأخوذ من بيت آخر في شعر شوقي ، ويشهد الله أني وقفت عند هذا البيت ورددته إلى منبعه الأصيل وتحدثت عنه منذ عام إلى بعض إخواننا من الأدباء ، وكان ذلك يوم أن تلقيت من لبنان ذلك الديوان الجديد الذي أخرجته دار مجلة « الأديب » للشاعر أبي ريشه ، والذي حوى إلى جانب ما حوى من شعره قصيدته التي ألقاها في مهرجان أبي العلاء ... يقول شوقي في « مجنون ليلى » :

قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا

ويقول عمر أبو ريشه :

قد تجف الحياة إلا وريدا ... ويضيق الوجود إلا مكانا

ويقول روحي فيصل : « ... والتقى شاعرنا مع شوقي في بيت لا أدري كيف أخذه في رابعة النهار » ! ثم يسكت عن الموازنة ، تاركا الحكم للقراء ، حيث يقول : « أي البيتين أجمل وأروع ؟ لا أريد أن أقطع أنا بالجواب الواضح ، فالترجيح متروك لذوقك وفطنتك ، ولفهمك فن البيان وفلسفة اللفظ ، وحسبي الآن أني أثرت شوقك إلى البحث والموازنة ، على ضوء مزاجك وثقافتك وصراحتك » ...

سكت الأستاذ فيصل عن الموازنة ، ولكن هذا السكوت أفصح من كل كلام ... ولو كان في المجال متسع للإفاضة لقدمت أنا إلى القراء تقداً مفصلا في مجال الموازنة بين البيتين ، تقداً ينتهي فيه الحكم الأخير إلى هذه الكلمات :

لقد حاول أبو ريشه أن يقف من شوقي موقف سلم الخاسر من بشار فلم يبلغ شيئاً ... إن الفارق بين بيت أبي ريشه وبيت شوقي ، هو الفارق بين الجبز البلدي والتفاح الأمريكاني ! !

وتبقى بعد هذا كله كلمة أخيرة أوجهها إلى الأستاذ روحي فيصل ، وهي أن كثيراً من النقاد المتذوقين قد خلا منهم الميدان منذ أمد طويل ، وحبذا لو تفرغ للنقد الأدبي ليضم جهده إلى جهود هذه القلة التي تعمل مخلصة على سد هذا الفراغ !

مصرع الكآبة الأمريكية مسز هيرست ميتشل :

أسفت كل الأسف وأنا أطالع في الصحف منذ أيام نبأ مصرع الكاتبة القصصية الأمريكية مسز هيرست ميتشل ...

ومرجريت ميتشل كما لا يخفى على القراء هي مؤلفة تلك القصة الرائعة التي قرأها الملايين وشاهدوها على الشاشة ، وأعني بها قصة « ذهب مع الريح » . إن مصدر أسى على مصرع هذه الكاتبة العظيمة هو أنها استطاعت بقصتها تلك أن تخرج أثراً فنياً لا يمكن أن تقاس إليه آثار كاتبة أخرى مثل جورج صاند ، وأن تقدم الدليل على أن الأدب الأمريكي الحديث على تفاهته لا يخلو من الروائع ، وأن قدرة المرأة على استكناه حقائق الحياة واستكمال أدوات الفن تفوق قدرة الرجال في بعض الأحيان !

ومن دواعي الأسف أيضاً أن تختم حياة هذه الفنانة بمثل هذا الختام الذي يثير الأسى والشجن — لقد كان من الممكن لو لم يقض القدر القاهر بانطفاء الشعلة المتوهجة في الخيال الخلاق ، أن يفيض النبع أكثر مما فاض فيظفر عشاق القصة الطويلة بأثر فني آخر يضاف إلى ذلك الأثر الوحيد الفريد ، وأعني به « ذهب مع الريح » ! مهما يكن من شيء فحسب مرجريت ميتشل أن يدرج اسمها في سجل كتاب القصة الأفذاذ بهذه التحفة اليتيمة التي كانت في حساب الفن كل رصيدها المدخر ، وإنه في ميزان النقد لرصيد عظيم — ومهما يكن من شيء أيضاً ، فإن طريق الخلود لا يسلكه السالكون بكثرة ما قسموا إلى الناس من نتاج القرائح وعمارة الأذهان ، وإنما يسلكونه بقيمة هذا النتاج ومدى تمثيله لصور الحياة وتصويره لخفائق النفوس على اختلاف الميول والأذواق وتفاوت الأجيال والعصور . الكيف لا الكم في ميزان الفن هو وحده أساس الخلود والبقاء ؛ وإلا لما استطاع كاتب مثل بنجامان كونستان أن يأخذ مكانه في صفوف الخالدين بقصة واحدة هي أدولف تلك القصة التي قال فيها بول بورجيه : « إن أدولف لتعد مثلاً أعلى للقصة الذاتية ، ولقد بقيت من كل تلك القصص التي ظهرت في القرن التاسع عشر وهي أحفلها بالحياة ، وأكثرها إنسانية ، وأشدها أسراً للشعور ، ولا توجد قصة أخرى تهزني كما هزتني هذه القصة » — كما قال عنها فرديناند برنتيير : « إن أدولف قصة إنسانية لا يمكن أن ترقى إلى حقيقتها التحليلية قصة أخرى

ينظر بورجيه إلى الفن من ناحية القيم الإنسانية ، وينظر إليه برنتيير من ناحية القيم التحليلية ، وبهذين الجناحين معاً يحلق الفن في أرحب الآفاق ، فإذا ما نال منه الجهد فهبط ليستريح فإن مكانه هناك — في أعالي القمم ! أما الإنسانية في « ذهب مع الريح » فهي في تلك الدقائق الباطنية العميقة المنبثقة من قلب امرأة حائرة بين رجلين : رجل جدير بحبها ومع ذلك فهي لا تحبه ورجل غير جدير بهذا الحب ومع ذلك فهي تحبه ، وهكذا كان حال « سكارليت » وهي موزعة الفكر والشعور بين « أشلي » و « بتلر » ! — وأما التحليل فهو في تلك الصفحات الزاخرة بقصف المدافع ودوي القذائف وأنات الضحايا وزفرات الثكالى وعصف الحديد ، هناك حيث تقدم مرجريت ميتشل للحرب الأهلية الأمريكية صورتين لا مثيل لهما في متاحف الفن ومتاحف التاريخ ! —

بعض الرسائل من عقيلة البرير :

بين يدي وأنا أكتب هذه الكلمات كثير من رسائل القراء في مصر والأقطار العربية — أما الذين يبعثون إليّ برسائلهم معبرين عن حسن الظن وكريم التقدير فلهم خالص الشكر وعاطر التحية ، وأما أصحاب الأسئلة التي يوجهونها إليّ في محيط الأدب والفن فبودي أن أوجه إلى بعضهم رجاء خاصاً ، هو أن يراعوا في أسئلتهم مدى الفائدة التي يمكن أن تعود على القارئ وهم في انتظار الجواب ؛ وذلك بأن تكون الموضوعات التي تثار جديرة بخلق قضية من القضايا الأدبية يهم القراء وضعها على بساط البحث والمناقشة . وإلى الأعداد المقبلة حيث أتناول بالتعقيب بعض هذه الأسئلة ، ولا بأس من تسجيل الشكر في مجال الرد على بعض التحيات —

أنور المعداوي

إعلان

تعلن مصلحة الأموال المقررة فقد القسيمة البيضاء ١١٢ (أموال مقررة) رقم ٤٢٩٢٧٣ مجموعة حرف ب

وقد اعتبرت المصلحة هذه القسيمة لاغية ، فكل من حاول استعمالها يعرض نفسه للمحاكمة الجنائية .

٢٧٣٥